

مصطلح "العجائبيّة" .. دراسة في المفهوم –

A Conceptual Study –The Term “Fantastic”

ط. د. نذير بلحاج* – مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة

جامعة باتنة nadhir.belhadj@univ-batna.dz1

تاريخ الإرسال	2020/03/30م	تاريخ القبول	2020/06/26م
---------------	-------------	--------------	-------------

ملخص

يُعدُّ مصطلح العجائبيّة (Le fantastique) واحداً من المصطلحات التي انتشرت في بحوث نقد الأدب العربيّة بكثرة في الآونة الأخيرة، ومما يلاحظُ حول هذه البحوث اختلافها الشديد في تحديد مفهوم هذا المصطلح؛ لأجل ذلك انطلق هذا البحث واضعاً هدفاً واحداً ينبغي الوصول إليه، وهو تحديد مفهوم العجائبيّة في اصطلاح نقد الأدب، وذلك من خلال وصف وتحليل وتمحيص التعريفات السابقة لهذا المصطلح؛ بغية الوصول إلى التعريف الأكثر دقةً وشموليّةً ووضوحاً، والأكثر قابليّةً للتطبيق على مختلف أنواع النصوص الأدبيّة العجائبيّة. وقد خلُصَ البحث إلى أنّ مفهوم العجائبيّة الذي أتى به تودوروف تزفيتان (Todorov Tzvetan)، وإن كان هو المفهوم الأكثر انتشاراً وتداولاً في أوساط البحوث العلميّة العربيّة؛ إلّا أنّه قد تلقى انتقادات كثيرة؛ بسبب بعض الثغرات الموجودة فيه، وهو الأمر الذي حثّم إيجاد مفهوم بديل للعجائبيّة تمّ ذكره، وشرحه، والاحتجاج له في نهايات هذا البحث.

الكلمات المفتاحية: مفهوم العجائبيّة؛ الغريب؛ العجيب؛ تودوروف؛ ما بعد تودوروف

Abstract

The term Fantastic (Le fantastique) is one of the words spread in the Arabic Literature criticism research in recent times, hence there is a myriad of definitions of this term. Accordingly, the current investigation attempts to determine the concept “The Fantastic” literature criticism convention. Owing to reach the most accurate, comprehensive, clear and applicable definition to all kinds of fantastic literary texts, the researcher described, analyzed and refined the previous definitions of this term. The conclusion displayed that though the concept of Fantastic, defined by Todorov Tzvetan, which is the most widely used term in the Arab scientific research community, had received many criticisms due to some deficiencies. Consequently, it was vitally imperative to find an alternative concept to the term Fantastic which was mentioned, explained, and protested at the end of this investigation.

Keywords: Fantastic concepts; strange; fantastic; Todorov; post Todorov

1. مقدمة

تزداد أهمية غربة وفهم وضبط دلالات مصطلحات النقد الأدبيّ الأجنبيّ يوماً بعد يوم، وذلك تزامناً مع الانهيار المتسارع، والتدفّق الغامر لهذه المصطلحات على ساحة النقد الأدبيّ العربيّ، خصوصاً بعد الثورة المعلوماتيّة المعاصرة.

وهذه الدراسة تندرج ضمن هذا الإطار، أين تسعى إلى تحديد مفهوم مصطلح "العجائبيّة" (Le fantastique)، وهو واحد من المصطلحات التي برزت في النقد الأدبيّ العربيّ، بعد أن وضع أُسسَه ونظّر له تودوروف تزفيتان (Todorov) Tzvetan. ولكنّ المفهوم التودوروفيّ للعجائبيّة قد ترك خلفه العديد من الإشكالات غير المحلولة، فكان أن انقسمت الدراسات النقدية العربيّة إلى دراسات انتقدت هذا المفهوم وعدّلت فيه، وأخرى تبنته بحذافيره، في حين رفضته دراسات أخرى رفضاً مطلقاً. وهذا الانقسام استدعى عدداً من التساؤلات يمكن حصرها فيما يلي: إلى أيّ درجة وُفّق تودوروف في ضبطه لمفهوم العجائبيّة؟ وما هي الزاوية التي انطلق منها لفعل ذلك؟ وهل يمكن وضع مفهوم أكثر دقة للعجائبيّة إذا انطلقنا من زوايا أخرى ممكنة؟

إنّ الإجابة عن هذه التساؤلات تستدعي وضع المفهوم التودوروفيّ للعجائبيّة في ميزان النقد، مع أخذ الانتقادات التي طالته بعين الاعتبار، وذلك لأجل الموزانة بينه وبينها في محاولة للوصول إلى المفهوم الأكثر دقة وشموليّة ووضوحاً. وبهذا يتضح أنّ لهذا البحث فرضيتين؛ الأولى تقتضي الإقرار بدقّة المفهوم التودوروفيّ للعجائبيّة ونجاعة تطبيقه على النصوص الأدبيّة، وأنّ الانتقادات التي وجّهت ضده ليست مؤسّسة، والثانية تقضي بعدم صلاحية هذا المفهوم

واستحالة تطبيقه كما هو دون تعديل، وهي الفرضية التي تتطلب البحث في مفاهيم أخرى لأجل اقتراح مفهوم بديل أكثر دقة وشمولية.

ولم يبق إلا التأكيد على أنّ هذه الدراسة ستكتفي بالبحث في الجانب الدلالي للمصطلح فقط، وذلك بدراسة معانيه اللغوية والاصطلاحية، ولن تتطرق لجانبه الشكلي؛ أي لإشكالية ترجمته إلى اللغة العربية؛ لأنّ هذا الأمر قد فصل فيه ووفاه حقّه الكثير من الباحثين.

2. المعاني اللغوية لمصطلح "العجائبية"

1.2 المعاني اللغوية للمصطلح في أصله الأجنبي

مصطلح "العجائبية" مصطلح ظهر حديثاً في النقد الأدبي العربي؛ أين ابتكره نقاد العربية ليرجموا مصطلح (Le fantastique) الفرنسي، والذي يقابله في الإنجليزية مصطلح (Fantastic).

وعن المعاني اللغوية لهذا المصطلح في اللغة الفرنسية، يمكن تلمس ثلاثة أنواع من المعاني في المعاجم؛ نوع مرتبط بالأحاسيس البشرية، ونوع مرتبط بالأشياء، وآخر مرتبط بالأعمال الفنية ومضامينها، فكلمة (fantastique) تحمل معاني المثير للانفعالات (sensationnel)، والشيء المتخيّل (imaginaire)، والخرافيّ (fabuleux)، واللاواقع (irrèel)، والخارق للطبيعة (surnaturel)، والمبالغ فيه (extravagant)، والرائع أو المدهش (formidable)، واللامعقول (irrationnel)، وغير القابل للتصديق (incroyable) ... وتعني أيضاً جنساً أدبياً أو صفة للأعمال الفنية التي تتجاوز الواقع وتضمّ كائنات خارقة للطبيعة (genre fantastique) ... (Robert, 1971, p. 429)؛ (Larousse, 2008, p. 168).

ومنه يُلاحظ أنّ اللفظ الفرنسي (Le Fantastique) في معناه اللغوي مرتبط بشكل عامّ بالخيال وبكلّ ما هو غير مألوف، أو خارق للطبيعة.

2.2 المعاني اللغوية للمصطلح في اللغة العربية

كلمة "العجائبية" مصدر صناعي، فالياء المشددة فيها هي ياء النسب، والتاء تاء التأنيث أو تاء النقل؛ ومنه فقد صيغ مصطلح العجائبية من كلمة "عجائب"، وهي جمع مفردة عجيب، جاء في "لسان العرب" في مادة "عجب": "جمع عجيب عجائب، مثل أفيل وأقائل، وتبيح وتبائع" (ابن منظور، د.ت، صفحة 2812)، وإذا كان الشائع عند النحاة عدم جواز النسبة إلى الجمع مستنديين في ذلك على رأي البصريين، إلا أن المجمع اللغوي القاهري أجاز ذلك استنادا على رأي الكوفيين ورأى أن النسبة إلى الجمع قد تكون أحيانا أدق في التعبير عن المراد (عباس، 1974، الصفحات 742-743)، ولعل المجمع القاهري مال إلى رأي الكوفيين لأن النسبة إلى الجمع شاعت في العصر الحديث بين أوساط اللغويين والمترجمين، وصارت في كثير من الأحيان ضرورة لغوية لا مناص منها للتفريق بين بعض المصطلحات.

أما عن المفرد؛ أي العجيب، فهو مشتق من العُجب أو العَجَب، وله معانٍ متعددة نقتطف منها ما يخدم السياق، وذلك من "لسان العرب" الذي جاء فيه: العُجب أو العَجَب: إنكار ما يرد عليك لقلّة اعتياده... وقد عَجِب منه يعْجَب عَجْبا، وتَعَجَّب واستعْجَب... قال الزّجاج: أصل العجب في اللغة أن الإنسان إذا رأى ما ينكره ويقلّ مثله قال: قد عجبْتُ من كذا... وقال ابن الأعرابي: العجب النظر إلى شيء غير مألوف ولا معتاد... وأعجبه الأمر: سرّه... (ابن منظور، د.ت، صفحة 2811)

أما في المعاجم الحديثة فقد ورد في "معجم اللغة العربية المعاصرة" ما نصّه: عَجِبَ من الأمر: أنكره لغرابته، وجده غريبا غير معتاد... أعجبه حسن التصرف: راقه وسرّه، ومال إليه، وحمله على العجب منه... أُعجب بنفسه: زها، ترفع وتكبر... تعجّب: انفعال النفس عمّا خفي سببه، وهو أن ترى الشيء يعجبك تظن أنك لم

تر مثله... وهو صيغة يراد بها استعظام أمر أو استغرابه.... (عمر، 2008، صفحة 1457)

يُستنتج من خلال ما تمّ ذكره في سبيل الإيضاح لا الحصر، أنّ العجائبيّة في الأصل اللغويّ - سواء المذكور في المعاجم القديمة أم الحديثة - تحمل معنيين أساسيين يكادان يكونان ضدّين، فالعجب إمّا إنكار الأمر لغرابته وقلة اعتياده، أو هو استحسان الشيء واستعظامه، لكنّ كلا المعنيين - رغم ذلك - يشتركان في كونهما انفعالا نفسيّا يحدث بسبب أمر جلّ يواجه المنفعل فيدفعه إلى الإنكار أو الاستعظام أو الحيرة أو غيرها.

هذا فيما يخصّ الجذور اللغوية للفظ "العجائبيّة"، أمّا اللفظ في حدّ ذاته فلا نكاد نجد له أثرا في المعاجم اللغوية القديمة، وسبب ذلك أنّ لفظ "العجائبيّة" مصدر صناعيّ، والمصدر الصناعي - كما يذكر عزة - في الغالب دالّ على المذاهب والاتجاهات، والتخصّصات، وكذا المصطلحات المترجمة عن اللغات الأجنبية، وهذه الأمور لم تكن مطروحة قديما، كما هي مطروحة الآن (عزة، 1999، الصفحات 248-252)، هذا ويمكن أن نضيف سببا آخر لغيابه عن المعاجم القديمة وهو أنّ الشائع عند العرب قديما عدم صياغتهم للمصدر الصناعي من الجموع كما سبق ذكره.

كان هذا حديثا مقتضبا عن المعاني اللغوية لمصطلح "العجائبيّة" في اللغة الفرنسيّة ثمّ العربيّة، وتمهيدا للحديث عن معناه في اصطلاح النقد الأدبيّ، وهو الأمر الذي قامت هذه الدراسة لأجله، والذي كان محلّ شدّ ومدّ بين كثير من المهتمين بالعجائبيّة في الأدب.

3. مفهوم العجائبيّة في اصطلاح النقد الأدبيّ

1.3 المفهوم التودوروفيّ للعجائبيّة وللمصطلحات المتاخمة لها (العجيب والغريب)

مصطلح "العجائبيّة" (Le fantastique) واحد من أكثر المصطلحات التي اختلف الباحثون في تحديد مفهوم قارّ وواضح له.

ومن أشهر مفاهيمها التي لاقت رواجا في الأوساط النقديّة العربيّة وحتى الغربيّة؛ المفهوم الذي حدّده تودوروف تزفيتان (Todorov Tzvetan)، والذي خصّص له كتابا كاملا سمّاه "مدخل إلى الأدب العجائبيّ"؛ وهو كتابٌ ترجمه إلى العربيّة الصديق بوعلام، ووضع مقدّمته محمد برادة، وفيما يلي سنعرض عصارة هذا المفهوم.

فبعد أن عرض تودوروف عدّة تعريفات مبسّطة سابقة للعجائبيّة، واطّلع على عدّة نصوص قصصيّة أغلبها فرنسيّ، توصّل إلى نتيجة مفادها أنّ للعجائبيّة ثلاثة شروط، الشرطان الأوّل والثالث ضروريّان، أمّا الشرط الثاني فغالبٌ على النصوص العجائبيّة لكنّه ليس ضروريّا، وهذه الشروط هي:

- الشرط الأوّل: تردّد المتلقّي للنصّ العجائبيّ: التردّد حسب تودوروف سِمَة ضروريّة، والعجائبيّة لا تدوم في أثر أدبيّ ما، إلّا زمن التردّد، وينشأ التردّد في نفس قارئ لا يؤمن إلّا بالقوانين الطبيعيّة، فيما يفاجئه النصّ بأمر يبدو - حسب الظاهر - فوق طبيعيّ (تودوروف، 1993، صفحة 18).

وقد رأى تودوروف أنّ العجائبيّة مؤقتة في أغلب النصوص؛ لأنّ النصّ العجائبيّ غالبا ما ينتهي وقد زال تردّد قارئه؛ وزوال التردّد يعني انتهاء عجائبيّة ذلك النصّ، واندراجه ضمن جنسين أدبيين آخرين على النحو الآتي:

إذا قرّر القارئ في نهايات الأثر الأدبي أنّ عالم النصّ الذي يقرؤه هو عالم واقعيّ، وأنّ ما حدث من أمور تبدو فوق طبيعّية قد فُسِّر في النهاية تفسيراً طبيعياً، قلنا إنّ هذا النصّ يندرج ضمن جنس الغريب (L'étrange)، أمّا إذا قرّر القارئ أنّ عالم النصّ هو عالم آخر غير عالمنا، تحكمه قوانين أخرى غير القوانين الطبيعيّة التي يؤمن بها القارئ، قلنا عندئذ أنّ النصّ ينتمي لجنس العجيب (Le merveilleux) (تودوروف، 1993، صفحة 65).

مثال توضيحيّ: جنازة المدعو (أ)، حضرها كثير من الناس، ولما انتهت الجنازة وعاد الجميع إلى منزل المتوفى (أ) (تقديم لقصة واقعيّة)، سمعوا صوت إطلاق رصاص في أعلى المنزل، فصعدوا فشاهد كثير منهم المتوفى (أ) نفسه يقفز من النافذة ويهرب حاملاً معه مسدساً، فاحتار الجميع وقالوا: كيف لشخص ميّت أن يظهر؟ (هنا الحدث العجائبيّ) وتستمرّ بعد ذلك أحداث القصّة (تستمرّ العجائبيّة معها)، وهنا يمكن أن تنحو القصّة منحيتين: الأولى يقتضي وجود تحقيقات تفرز في نهاية القصّة أنّ للمتوفى (أ) شقيقاً توأماً، ولم يكن الناس يعرفون بأمره لأنه اختطف وهو رضيع (هنا فُسِّر الحدث العجائبيّ تفسيراً طبيعياً؛ فالقصّة تندرج ضمن الغريب)، أمّا المنحى الثاني فيقتضي وجود تحقيقات تُفرز في النهاية أنّ طيف المتوفى وروحه الغاضبة خرجت وانتقمت لقاتلها، وتنتهي القصّة على هذه الشاكلة (هنا فُسِّر الحدث العجائبيّ تفسيراً فوق طبيعيّ). وأدرك القارئ أنّ عالم القصّة غير عالمنا؛ فالقصّة تندرج ضمن العجيب)، وفي كلا المنحيتين العجائبيّة موجودة، والتردد حاضرٌ في ثنايا النصّ.

وتجدر الإشارة إلى أنّ تودوروف استدرك وذكر أنّه من الخطأ إطلاق القول بأنّ العجائبيّة لا يمكنها أن توجد إلّا في جزء من الأثر الأدبيّ، فهناك آثار تحافظ على الغموض حتى النهاية، وقارئها يبقى متردداً حتى بعد أن ينهي القراءة ويغلق

الكتاب (تودوروف، 1993، صفحة 67)، ومنه فالقول بأنّ العجائبية سمة مؤقتة في النصوص يبقى أمراً نسبياً.

- الشرط الثاني: تردّد الشخصية داخل النصّ العجائبيّ: يساهم هذا الشرط في زيادة تردد القارئ وتأرجحه بين الواقعية واللاواقعية، وذلك عن طريق تماهي القارئ مع الشخصية داخل النصّ، ولكن، هل هذا الشرط ضروريّ لتحقيق العجائبية حسب تودوروف؟

لقد أجاب هذا الأخير على هذا التساؤل حين ذكر أنّ أغلب النصوص التي تلبّي الشرط الأوّل تلبّي الشرط الثاني أيضاً، إلّا أنّ هناك استثناءات كما في فيرا، لفيلير دوليل آدام (Villiers de l'Isle-Adam) ... فقارئها لا يتوحّد مع أيّ شخصية، والتردّد فيها ليس مجسّداً في شخصيات النصّ، لذلك فقاعدة تردّد الشخصية داخل النصّ العجائبيّ شرط اختياريّ للعجائبية، قد لا تتحقّق ويبقى النصّ نصّاً عجائبية؛ رغم أنّ معظم الآثار العجائبية تلبّي هذا الشرط (تودوروف، 1993، صفحة 53).

- الشرط الثالث: القراءة يجب ألا تكون تأويلية: العجائبية حسب تودوروف تقتضي من القارئ نوعاً خاصّاً من القراءة، يمكن تحديده بالنفيّ بالقول: "يجب أن تكون لاشعريّة ولا أليغوريّة" (تودوروف، 1993، صفحة 53). يقول تودوروف: "إذا كان ما نقرأه يصف واقعة فوق طبيعّية، وكان يتعيّن مع ذلك فهم الكلمات لا بالمعنى الحرفيّ، ولكن بمعنى آخر لا يحيل إلى أي شيء فوق - طبيعّي، فإنه لم يعد ثمة مكان للعجائبيّ" (تودوروف، 1993، صفحة 89)؛ ومعنى ذلك أنّ النصوص التي تحتوي على أمور فوق طبيعّية، لكنها بالمقابل تقتضي قراءة تأويلية تحيل إلى الواقع والطبيعة؛ هذه النصوص لا تُعتبر نصوصاً عجائبية لأنها لا تخلق أيّ تردّد في نفس القارئ.

غير أنّ تودوروف نبّه إلى نقطة مهمّة في هذا السياق، وهي كون معظم النصوص تحتل التأويل؛ أي القراءة الشعرية والأليغورية؛ لأنّ ما يميّز الأدب بالضبط هو قابليّته للتأويل، وتأويلات قرائه لا نهائية، لذلك فقد طلب من النقاد عدم الحديث عن الأليغورة وتأويلها، إلّا إنّ وُجدت إشارات مباشرة داخل النص تدلّ عليها. أمّا التأويل في ظلّ عدم وجود تلك الإشارات المباشرة فلا يعدو أن يكون مجرد تفسيرٍ من القارئ (تودوروف، 1993، صفحة 99).

كانت هذه شروطا ثلاثا وضعها تودوروف لتحقيق العجائبيّة في نص من النصوص، وكما هو ملاحظ فهي تعود في أصلها إلى شرط واحد يجب أن يتحقّق في النص، وهو إحداث التردّد في نفس القارئ، وجعلّه يتأرجح بين التصديق والتكذيب لما يقرأه، فإنّ حدث ذلك فالنصّ نصّ عجائبيّ.

وإلى جانب هذه الشروط، تحدّث تودوروف مطوّلاً عن التقنيّات التي يستعملها الكتّاب لإحداث التردّد، فرأى أنّ منها ما يتعلّق بالملفوظ كالمبالغة في أحجام الأشياء مثلاً، ومنها ما يتعلّق بالتلفّظ كاستعمال ضمير "أنا المتكلّم" عند السرد، فالراوي الذي يكون مُمثلاً في النصّ بضمير الأنّ، يسمح بتماهي القارئ مع الشخصية، ومن ثمّ يحصل الدخول إلى الكون العجائبيّ، ومن التقنيّات المحدثّة للتردّد - أيضاً - ما يتعلّق بالمظهر التركيبيّ للقصة، إذ على القصة العجائبيّة أن تمهّد لظهور العجائبيّ بعناية فيكون ظهوره نقطة الذروة فيها... (تودوروف، 1993، الصفحات 104-118)، وليس المقام هنا مقام تفصيل في تقنيّات إحداث العجائبيّ؛ إذ يكفي الغرض ما ورد حول مفهوم العجائبيّة عند تودوروف وشروطها وبعض تقنيّاتها؛ هذا المفهوم الذي أحدث ضجّةً نقديةً نتج عنها متبنّون له، ومناوئون كانت لهم حجج معيّنة سنذكر فيما يلي أهمّها.

2.3 أمثلة عن بعض الرافضين وبعض المتبنين للمفهوم التودورفي

إنّ القبول بالمفهوم التودورفي للعجائبية والقبول بتقسيماته الواضحة الحدود، المضبوطة القوانين؛ يبدو مريحاً حقاً، لكنّه قبول فيه تكاسلٌ عن النظر في كثير من الإشكالات التي يطرحها هذا المفهوم، فمن جهة؛ إنّ القول بالتردد الذي يثار في نفس القارئ هو معيارُ العجائبية، يطرح علامة تعجب، إذ أنّ القراء يختلفون، وما يثير تردد قارئ لا يثير تردد آخر، لأنّ معارفهم تختلف، وخلفياتهم تتنوع. ومن جهة أخرى؛ فالإنسان يتطور وما كان محل تردد يوماً ما، ربّما صار أمراً مقبولاً أو مرفوضاً علمياً وقطعياً اليوم؛ فالنصّ العجائبيّ حسب المفهوم التودورفي لا يبقى عجائبيّاً دائماً، كما أنّ تودوروف بمفهومه هذا قد اعتبر العجائبية أثراً نفسياً لا أثراً أدبياً، لكنّه مع ذلك كان يمثل لها بالأثار الأدبية ويقول أنّها آثار عجائبية... ونظراً لهذه الثغرات التي تضمّنها المفهوم التودورفي للعجائبية، ولبعض الإشكالات التي لم يُقْمَ بحلّها؛ فقد رفضه كثير من النقاد وعدّلوا فيه، ومن هؤلاء:

- بدرأوي عبد المجيد: الذي ذكر أنّ كثيراً من النقاد يرون العجائبية تتحقّق في النصّ الأدبيّ إذا قام على ما فوق الطبيعيّ المدهش والغريب، وأنّنا إذا تقيّدنا بالشروط التي وضعها تودوروف؛ سنحكم باستحالة وجود العجائبية في الأدب؛ لأنّ ما يثير تردد قارئ، قد لا يثير تردد قارئ آخر بسبب اختلاف المعتقدات والثقافات (بدرأوي، 2013، صفحة 278)، ويبدو رأيُه هذا منطقياً جداً؛ فالحكم على نصّ ما بكونه نصّاً عجائبيّاً أم غير ذلك، اعتماداً على معيار التردد، صعب ونادر التحقّق في الأدب؛ لأنّ القراء سيختلفون، فمنهم من سيتردّد، ومنهم من سيحكم على النصّ مباشرة بأنّه نصّ عجيب (un text merveilleux)، ومنهم من قد يعتبره نصّاً واقعياً يحكي حدثاً طبيعياً.

- برادة محمّد: مقدّم كتاب تودوروف نفسه، وذلك عند تقديمه للكتاب، أين لام برادة تودوروف على تحديده المعياريّ للعجائبيّة، وتغافله عن النصوص العجائبيّة التي قد تتنافى والمعايير التي أتى بها، وقال أنّ تودوروف أعطى سلطة مطلقة للصّورنة التجريدية القاعدية للجنس، متجاهلا مداخل أخرى ممكنة قد تكون أكثر شموليّة واتفاقا مع معظم النصوص العجائبيّة الموجودة (تودوروف، 1993، صفحة 19).

فبدل أن يحدّد تودوروف معايير أكثر شموليّة لاحتواء مختلف النصوص العجائبيّة: كان ينفي العجائبيّة عن نصوص كثيرة لكونها لا تحتوي على المعايير التي وضعها، وهو ما يجلب إلى الأذهان دلالات قصة سرير بروكرست. هذا وقد أقرّ برادة بضرورة النظر إلى العجائبيّة من زوايا أخرى ممكنة وذلك حينما قال: "إنّ مقارنة العجائبيّ... من منطلق التركيز على سمة رئيسيّة ذات طابع إدراكيّ هي التردّد... تظل مقارنة من بين مقاربات أخرى مشروعة تستجيب لسمات أخرى لا تقل مركزيّة، مثل... مسلسل البحث والتوهم والتعرّف، وتحطيم قوانين العالم والعقل..." (تودوروف، 1993، صفحة 20).

- بن نوار بهاء: والتي قرّرت بعد ذكرها لعديد من تعاريف العجائبيّة أنّها لن تكتفي بما أقرّته نظرية تودوروف حول العجائبيّة، وأنّها ستوسّع من مفهوم العجائبيّ ليشمل كل حضور للماورائيّ بشكله المطلق في النصوص الروائيّة (بن نوار، 2013، صفحة 30)، وهذا الاتجاه الذي نحته الباحثة ينسف معظم ما أتى به تودوروف حول العجائبيّة، ويهدم كلّ تلك التقسيمات التي أتى بها؛ فالقول بأنّ العجائبيّة تشمل كلّ حضور لما هو فوق طبيعيّ في النصوص، يجعلنا لا نفرّق بين نصّ يبني عالما متخيّلا خاصّا به لا علاقة له بالواقع، وبين نص يفترض مضمونه وتقنياته السردية أنّه يجري في عالمنا الواقعيّ، لكنّ أمورا كثيرة فوق طبيعيّة تحدث

فيه، ولا شك أنّ بين النصين فروقا كثيرة سواء من ناحية أثرهما على القارئ، أم من ناحية التقنيات السردية والفكرية التي يعتمدها كُتّابهما.

- شنايدر مارسيل (Schneider Marcel): الذي دعا إلى ضرورة توسيع مفهوم العجائبية، وعدم وضعها بين قضبان العجيب والغريب، والإغلاق عليها بمفتاح التردّد؛ فالعجائبية - حسبه - أوسع من ذلك، فهي نتاج كلّ تصدّع مفاجئ للواقع المعاش يوميًا، والنصوص التي تتجلى فيها كثيرة ومتنوعة (بن نوار، 2013، صفحة 29)، فحصر العجائبية في التردّد باعتباره حالة نفسية تنتاب القارئ، يجعل منها ظاهرة فريدة في الأدب قلّما تتحقّق.

- لابييه دنيس (Labé Denis)، وميليه جيلبير (Millet Gilbert): اللذين أكّدا أنّ تودوروف استنبط تعريفه من بعض روايات القرن التاسع عشر لكنّه ضيّق من مفهوم العجائبية، حتى عاد هذا المفهوم غير قادر على احتواء النصوص العجائبية المختلفة، وقد مثلاً لذلك برواية الرعب الحديثة (بن نوار، 2013، صفحة 28).

هذا ونجدُ تعريفات أخرى كثيرة تختلف اختلافًا نسبيًا عن تعريف تودوروف، ومنها ما ذكره كاستيس بيير جورج (Castex Pierre George) من كون "العجائبيّ يتميّز بالإقحام الفظّ للسريّ الغامض في الحياة اليومية الواقعية..." (عطية، 2015، صفحة 25). فهو يشير إلى أن ما يميّز العجائبيّ هو امتزاج الواقع الطبيعي بالأمر الخارق للطبيعة أو التي تبدو كذلك، ويوافقه في هذا كايوا روجي (caillois Roger) إذ يقول: "إنّ العجائبيّ كلّ قطيعة للنظام المعترف به، واقتحام من اللامقبول لصميم الشعيرة اليومية التي لا تتبدل" (تودوروف، 1993، صفحة 50)، فكلُّ منهما قد نظر إلى العجائبية من منظور مختلف عن منظور تودوروف، فهما قد عرفاها انطلاقًا من مضامين النصوص، على عكس تودوروف الذي

استند في تعريفه لها على ردة فعل القارئ. ويبدو المنظور الأول أكثر ثباتا واستقرارا، فمضامين النصوص ثابتة نسبيا؛ في حين أنّ ردود فعل القراء متذبذبة ومختلفة اختلافا لا نهائيا.

وانطلاقا مما سبق، يمكننا ان نقول أنّ المعارضين قد أجمعوا - كلّهم تقريبا - على ضرورة توسيع مفهوم العجائبية، وعدم ربطها بالتردد، وحصرها بين العجيب والغريب، فدعوا إلى كون العجائبية تقنية نجدها في كلّ نصّ جامع، مانحٍ للآ مألوف في الواقع اليوميّ والمعتاد للمتلقّي.

ورغم هذه الاعتراضات والانتقادات التي مسّت المفهوم التودوروفيّ للعجائبية في صميمه، إلّا أنّ كثيرا من الباحثين العرب قد بنّوا عليه دراساتهم، ولعلّ من أسباب شيوع هذا المفهوم، هو الترجمة المبكرة لكتاب تدوروف "مدخل إلى الأدب العجائبيّ" إلى اللغة العربية، على خلاف كتب أجنبية أخرى مهمة بالموضوع والتي لا تزال حتى الآن غير مترجمة. ومما لوحظ حول بعض هذه الدراسات العربية التي تبنت المفهوم التودوروفيّ للعجائبية بحذافيره، أنّها وقعت في التناقض بين جانبها النظريّ وجانبها التطبيقيّ، والأمثلة في هذا السياق كثيرة نسوق منها:

- دراسة العتيبي خديجة هلال: اكتفت عند حديثها عن مفهوم العجائبية الحديث في اصطلاح نقد الأدب بذكر التعريف التودوروفيّ، ولمّا وصلت لجانب التمثيل بدأت بالاستشهاد برسالة "الغفران"، ثمّ تلتها برسالة "التوابع والزوابع"، وقالت بعد ذلك بالحرف الواحد: "ويحفل الكتابان بالصبغة العجائبية، إذ يصوّران عالما غير واقعيّ، ويرصدان أحداثا مغرقة في الخيال على مستوى الفضاء والزمان، مما يجعل المتلقي ينفع كثيرا إزاء العاملين" (العتيبي، 2016، صفحة 52)، وهنا يحقّ لنا أن نتساءل: إذا كان ما يصوّره العملاق هو عالم غير واقعيّ،

فأين هو التردّد بين واقعية الأحداث من عدمها، والذي هو محور المفهوم التودوروفي الذي وضعته الباحثة في البداية؟

- دراسة عطية فاطمة الزهراء: والتي قالت - بعد أن عرضت الكثير من تعريفات العجائبية - أنّها ستعتمد في بحثها مفهومًا يقضي بأنّ العجائبية هي الأحداث التي تجمع في طبيّاتها الواقع والخيال معاً، ممّا يجعل القارئ في حيرة وتردّد بين عالمين؛ عالم الحقيقة وعالم الوهم (عطية، 2015، الصفحات 41-42)، وهو ما يعني تبنيها للمفهوم التودوروفي، لكنّها وقعت في التناقض حين اختارت "رسالة التوابع والزوابع" وكذا "منامات الوهرائي" مدوّنتين لبحثها حول العجائبية؛ فكلتا المدوّنتين لا يثيران أدنى تردّد وحيرة حتى عند قراء الوقت الذي أُلّفَتا فيه، فقارؤهما يعلم في البداية أنّ ما يقرأه هما نصّان متخيّلان، ومنه فالمدوّنتان تندرجان ضمن جنس العجيب، ولا عجائبية فيهما حسب المفهوم التودوروفي.

- دراسة بوقدوم نجوى: رغم كون هذه الدراسة حول السرد العجائبي ذات بعد نظري، إلّا أنّها اكتفت بالتأكيد على ما جاء به تودوروف حول مفهوم العجائبية ولم تضيف عليه الكثير، فالباحثة تؤكّد على أنّ التردد والارتباك اللذين ينتجان عن عجز القارئ عن إثبات واقعية النصّ أو نفيمها هما أساس العجائبية، لكنّها عادت بعد ذلك لتناقض هذا الأمر بقولها أنّ التردّد والحيرة يزيدان كلّما فقد المتلقّي ما يربطه بالعالم الواقعي، وكلّما تخلّى عن معايير العقل والمنطق وهو يقرأ النصّ، وهو ما يخالف المفهوم التودوروفي الذي يقتضي أنّ زيادة الحيرة والتردّد مرتبطة باقتراب النصّ من الواقع دون أن يكون مطابقاً له، هذا إضافة إلى تمثيلها بأوديسة هوميروس على أساس كونها نصّاً يشعّ بالعجائبية (بوقدوم، 2017)، وهنا يحقّ لنا أن نكرّر التساؤل: أيّ تردّد تثيره الأوديسة؟ وهل حقّاً يتأرجح قارئها بين تصديق أحداثها وتكذيبها؟

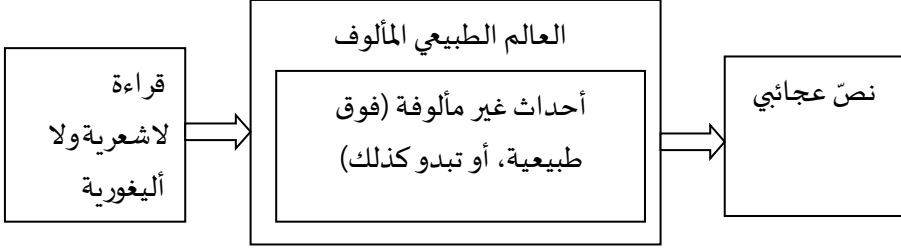
وإضافة إلى هؤلاء نجد باحثين آخرين تبّنوا المفهوم التودوروفيّ وراحوا يدرسون - على أساسه - نصوصاً عربيّة قديمة قالوا أنّها نصوص عجائبيّة، لكنّهم تغافلوا عن كون النصوص التي درسوها غير مطابقة في سماتها للمفهوم التودوروفيّ. ولأجل ذلك شنّ أبو ديب هجوماً عنيفاً عليهم، واتهمهم بالافتتان بكلّ ما هو غربيّ (أبو ديب، 2007، صفحة 9).

فالمفهوم التودوروفيّ لكونه يُعدّ المحاولة الجادّة الأولى في تحديد مفهوم العجائبيّة، ولكون كتابه "مدخل إلى الأدب العجائبيّ" يعدّ أحد أوائل الكتب التي تُرجمت إلى العربيّة في هذا المجال، قد كان له واسع التأثير والانتشار خصوصاً في الأوساط العربيّة، لكنّه مع ذلك تلقّى انتقادات كثيرة، إضافة إلى إثبات بعض الدراسات أنّ تطبيق تقسيماته الصارمة على النصوص الأدبيّة أمر صعب التحقيق، وهو الأمر الذي يدعونا للبحث عن مفهوم بديل للعجائبيّة: مفهوم ننطلق فيه من النصوص الأدبيّة، لا من ردّة فعل القارئ، وإنّ كنا نقرّ بأنّ الأمر لا يخلو من مخاطر وانزلاقات.

3.3 مفهوم مركّب بديل لمصطلح "العجائبيّة" في النقد الأدبيّ:

تطلّبت مهمّة إيجاد مفهوم بديل للعجائبيّة تمحيصاً ومزجاً حذراً بين الآراء السابقة جميعاً للتوصّل إلى تعريف نراه أكثر قبولا ومنطقيّة، وهذا التركيب والتمحيص أوصلنا إلى نتيجة مفادها أنّ العجائبيّة: تقنيّة سرديّة تتوسّل الّلا مألوف - سواء أصدّقهُ القارئ أم كذّبهُ أم تردّد - لتمزجه بالواقع الطبيعيّ المألوف الذي يسعى الكاتب إلى التأكيد بأنّه فضاء النّص، وذلك باعتماده على تقنيّات متعدّدة، كما تشترط العجائبيّة لوجودها - إضافة لما سبق - قراءةً خاصة لا شعريّة ولا أليغوريّة.

الشكل 1: رسم يجسّد المفهوم البديل للعجائبيّة



المصدر: من إعداد الباحث

ويمكن تفكيك وتبرير عناصر هذا التعريف وشرحها بالآتي:

- يُقصد بالواقع الطبيعيّ المؤلف أيّ عالم سرديّ مقارب للعالم المعمور الذي نعيش فيه، بأماكنه المعروفة، ومخلوقاته المألوفة، وقوانينه المتكرّرة.

- أمّا المقصود باللامألوف فهو كلّ أمرٍ خارقٍ، أو يبدو خارقاً ومخالفاً للقوانين الطبيعيّة المتكرّرة والمعروفة؛ سواء صدّق القارئ هذا اللامألوف أو نقّاه، أو تردّد في الحكم عليه. وقد يقول قائلٌ إنّنا انتقلنا من إشكاليّة عدم ثبات ردّة فعل القارئ والتي جعلت كثيرين يرفضون المفهوم التودوروفيّ للعجائبيّة، إلى إشكاليّة عدم ثبات ما هو غير مألوف وعدم تساويه عند جميع القراء، فيُقال له أنّه محقٌّ في ذلك، ولكنّ ما هو غير مألوف يبدو معياراً أوضح وأسهل للقياس من معيار تردّد القارئ، فما هو غير مألوف في الغالب شائعٌ ومتّفق على عدم ألّفته، في حين أنّ تصديق حدوثه من عدمه يندُرُ أن تجد الاتفاق التامّ حوله، فمعجزات الأنبياء مثلاً، و مواهب القديسين، وتأثيرات السحرة، و التخاطر البارسيكولوجيّ ... أمور يعترف الجميع بعدم ألّفها عليهم، لكنّنا في المقابل نجد متلقّين منقسمين بين تصديقها وتكذيبها والتردّد بين هذا وذاك.

ويقصد بسعي الكاتب إلى التأكيد أنّ الواقع الطبيعيّ المؤلف هو فضاء القصة، وجود بعض التقنيات الكتابيّة التي تحقّق ذلك، مثل اعتماد الأماكن

المرجعية المعروفة مسرحاً لأحداث النص، أو كاعتماد الشخصيات التاريخية في النص، أو كمزج ما هو غير مألوف بالأمور الدينية مثلما نجد في قصص المغازي القديمة وغيرها من النصوص المشابهة، أو كمحاولات إقناع القارئ أو إيهامه بواقعية الأحداث عن طريق ذكر الأسانيد في بداية النصوص كما نجد في بعض قصص الكرامات مثلاً، أو كالإتيان بحجج لا يمكن للقارئ أن يصل إليها ليتأكد من صحتها أو زيفها، مثلما نجد في رواية "شيفا" للكاتب "طاهرية عبد الرزاق" ... وغيرها من التقنيات التي تجعل قارئ النص العجائبي مُدركاً لكون الأحداث العجائبية التي تجري في النص، يُفترض أنها تجري في عالمنا الطبيعي، حتى وإن كان ذلك القارئ لا يصدق حدوثها فعلياً.

أما شرط القراءة الخاصة اللا شعرية واللا أليغورية للنص العجائبي؛ فهو شرط وضعه تودوروف، وقد سبق الحديث عنه، وهو شرط ضروري لوجود اللامألوف في أي نص؛ فإذا كان النص يذكر في المعاني الحرفية لجمله ظاهرة ما غير مألوفة، لكن سياقها الذي وُضعت فيه يفرض أو يحثُّ على تأويل معاني تلك الجمل لتحيل بعد تأويلها إلى أمر طبيعي مألوف، فلا وجود للامألوف فيه أصلاً، ومنه فلا وجود للعجائبية.

وهذا التحديد النهائي لمفهوم العجائبية في الأدب لم يأت من فراغ، بل هو تشذيب وتركيب لآراء كلٍّ من تودوروف، وكذا آراء برادة، وب دراوي، وبن نوار، ولابيه، وميليه وكاستيس السابقة الذكر... ويكمن لب مخالفته لتعريف تودوروف، في كونه يركز على خاصية المزج بين المألوف واللامألوف، لا على خاصية التردد، وهذا الأمر يُبعد الباحث عن إشكالية نسبية حدوث التردد في نفس القارئ والتي اشتراطها تودوروف، وانتقدها من جاء بعده، كما أنه يوسع دائرة العجائبي، ويجعلها أكثر ثباتاً واستقراراً.

ومثال ذلك قصص كرامات الأولياء والصالحين، فالمؤمن بها إيماناً شديداً خالياً من النقد سيصدقها دون أدنى تردد، أما القارئ ذو الخلفيات العلمية المادية، فسيوجه مباشرة إلى اعتبارها قصصاً شعبية لا علاقة لها بالواقع؛ ومنه فلا وجود للتردد عنده، في حين ستجد فئة أخرى ستتردد بين التصديق والتكذيب لها، فتبقي الباب مفتوحاً على إمكانية حدوث الكرامات، دون أن تجزم بحدوث كرامات القصة المقروءة بالذات.

فإن انطلقت من المفهوم التودوروفي للعجائبية، فهل قصص الكرامات قصص عجائبية؟ إنها لا تكون كذلك إلا عند الفئة الثالثة من القراء، وهي الفئة المترددة. أما إذا انطلقت من التعريف النهائي الذي تمّ استخلاصه، فستجد أنّ قصص الكرامات تروي لنا قصصاً يفترض نصّها وسياقها أنها حدثت في الواقع والعالم المألوف، وتتوسّل لأجل إثبات ذلك بذكر اسم الولي الصالح صاحب الكرامة ويكون في الغالب شخصية مرجعية معروفة، وبذكر مكان مكوثه، وربما بذكر أنّ الكرامة حدثت على مرأى من الناس، وبذكر أنها رُويت بسند موثوق... ثم تأتي الكرامة بعد ذلك كفعل خارق لا مألوف، ليمتزج الواقع بالخارق، وتكون بذلك قصص الكرامات قصصاً عجائبية بامتياز، وعند جميع القراء.

4. خاتمة

نشأت هذه الدراسة من رغبة واحدة تتمثل في إيجاد مفهوم مستقرّ نسبياً لمصطلح العجائبية، بعد أن لوحظ تنوع مفاهيمه في الدراسات النقدية العربية بشكل خاص. لذلك فقد ركّز البحث على هذا الأمر بشكل مباشر، وذلك بالتطرق للمعاني اللغوية لمصطلح العجائبية (Le fantastique) في اللغة الفرنسية ثمّ العربية، ثمّ التطرق إلى مفهومه في اصطلاح نقد الأدب، فتوصّل بعد ذلك إلى عدد من النتائج أبرزها:

- نشوء مصطلح ولفظ العجائبيّة في الدراسات العربيّة بعد نشوئه في الدراسات الغربيّة، وخاصّة بعد ترجمة كتاب تودوروف الموسوم بـ "مدخل إلى الأدب العجائبيّ".

- تأثير ترجمة كتاب تودوروف دون غيره على الدراسات العربيّة كان كبيراً، أين كان المفهوم التودوروفيّ للعجائبيّة هو المفهوم الأكثر شيوعاً فيها.

- رغم تبني المفهوم التودوروفيّ للعجائبيّة من قبل الكثير من الباحثين من جهة، إلّا أنه تلقى انتقادات كثيرة من جهة أخرى، وتعود معظم الانتقادات في جوهرها إلى سبب واحد هو استناد تودوروف في تعريفه على ردّة فعل القارئ تجاه النصوص العجائبيّة لا على النصوص نفسها.

- الانطلاق من النصوص في تعريف العجائبيّة، أوصل إلى أنّ العجائبيّة تقنيّة سرديّة تتوسّل الّلا مألوف - سواء أ صدّقهُ القارئ أم كذّبهُ أم تردّد -، لتمزجه بالواقع الطبيعيّ المألوف الذي يسعى الكاتبُ إلى التأكيد بأنّه فضاء النّص، وذلك باعتماده على تقنيّات متعدّدة، وتشترط العجائبيّة لوجودها - إضافة لما سبق - قراءةً خاصة لا شعريّة ولا أليغوريّة.

كانت هذه أبرز نتائج البحث، وهو بحث ركّز على هدف واحد كما سبق القول، تاركا الكثير من الإشكاليّات الأخرى التي يطرحها هذا المصطلح، مثل إشكاليّة تعدّد ترجماته في الدراسات العربيّة، وإشكاليّة أنواع النصوص العجائبيّة من حيث بنائها ومضمونها، وإشكاليّة حصر النصوص العجائبيّة الموجودة في الأدب العربيّ القديم... وغيرها من المواضيع التي تحتاج دراسات مستقبلية معمّقة وجادة.

6. قائمة المراجع

- 1- أبو ديب، كمال. (2007). *الأدب العجائبيّ والعالم الغرائبيّ في كتاب العظيمة وفنّ السرد العربيّ*. بيروت، لبنان: دار الساقى ودار أوركس للنشر.
- 2- بدرأوي، عبد المجيد. (جوان، 2013). "المكان العجائبيّ في ألف ليلة وليلة: حكايات السندباد البحري نموذجاً". *مجلة كلية الآداب واللغات بجامعة محمد خيضر*، 6(13)، ص ص 275-296. تم الاسترداد من <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/108809>
- 3- بوقدوم، نجوى. (05 06 2017). "السرد العجائبي: مقارنة نظرية". *مجلة مقال*، 3(5)، ص ص 56-66. تم الاسترداد من <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/25169>
- 4- بن نوار، بهاء. (2013). *العجائبيّة في الرواية العربيّة المعاصرة: مقارنة موضوعاتية تحليلية*. أطروحة دكتوراه، جامعة الحاج لخضر. باتنة، الجزائر.
- 5- ابن منظور، أبو الفضل. (د.ت). *لسان العرب* (المجلد 4). (عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، و هاشم محمد الشاذلي، المحررون) القاهرة، مصر: دار المعارف.
- 6- عباس، حسن. (1974). *النحو الوافي: مع ربطه بالأساليب الرفيعة والحياة اللغوية الجديدة* (ط. 3). المجلد 4. القاهرة، مصر: دار المعارف.
- 7- عزّة، عبد الفتاح عبد الحكيم. (1999). "المصدر الصناعي في الصحافة المصرية (1996-1998) دراسة صرفية دلالية". *علوم اللغة*، (2)، ص ص 246-314.
- 8- عطية، فاطمة الزهراء. (2015). *العجائبيّة وتشكّلها السردّي في رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسيّ ومناجات ركن الدين الوهرانيّ*. أطروحة دكتوراه، جامعة محمد خيضر. بسكرة، الجزائر.
- 9- عمر، مختار أحمد. (2008). *معجم اللغة العربيّة المعاصرة* (المجلد 2). القاهرة، مصر: عالم الكتب.
- 10- العتيبي، خديجة هلال. (2016). "العجائبيّ في الرحلة العربيّة". *AAM*، (23)، ص ص 47-57. تم الاسترداد من <https://cutt.us/GpYcO>
- 11- تودوروف، تزفيتان. (1993). *مدخل إلى الأدب العجائبيّ*. (الصادق بوعلام، المترجم) الرباط، المغرب: دار الكلام.
- 12- larousse, p. (2008). *Larousse. Malesherbes, Loiret, France: l'imprimerie Maury.*
- 13- Robert, P. (1971). *Micro Robert*. paris, France: S. N. L.